وزارة المعارف العمومية

تفسير جزء تبارك

وهو الجزء التاسع و العشرين من الكتاب الكريم

تأليف العالم الجليل

الشيخ عبد القادر المغربي

نائب رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق وعضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية بالقاهرة

قام بتصحيحه و علق عليه بتكليف من وزارة المعارف المصرية

على محمد حسب الله

استاذ العلوم الشرعية المساعد بكلية دار العلوم (جامعة فؤاد الأول بالقاهرة)

المطبعة الاميرية بالقاهرة

١٣٦٦هـ - ١٩٤٧ م

سورة الإنسان مكيّة

وقيل : مدنيّة

وهى إحدى وثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ

قوله ﴿ هل أتى الخ ﴾ وإن كان فى صورة الاستفهام فإن المراد به التقرير والتحقيق فتكون [هل] قامت فى الآية مقام [قد] نفسها . وذلك كقولك لآخر : "هل أكرمتك ؟" والمخاطب يعرف أنك أكرمته . وإنما تريد تحقيق الاكرام وتأكيد أمره . كأنك تقول : " قد أكرمتك " . وكذلك الشأن فى الآية ؛ فإن كل واحد من بنى الإنسان مر عليه وقت لم يكن فيه شيئا مذكورا بل كان شيئا منسيا لا يفطن له أحد ، وذلك مذ كان جرثومة فى صلب أبيه ، أو جواهر فردة منبثة فى عناصر هـذا الكون . أو المراد بالإنسان نوع الإنسان بجملته ، فإنه أيضا مر عليه حين من الدهر — الله وحده يعلم مقداره — كانت هـذه الكرة الأرضية خالية منه ، فلم يكن شيئا مذكورا ، بل كان شيئا منسيا مغمورا ، لا يذكره ولا يعلم به إلا الذى يريد أن يخلقه وهو الله تعالى .

بعد أن قرر أن الإنسان مر عليه وقت لم يكن فيه موجودا أخذ يشرح كيف أفاض الله عليه نعمة الوجود واختبره بالتكليف بعد أن متعه بنعمة الإدراك والحواس فقال : ﴿ إنا خلقنا الإنسان ﴾ ، أى نوع الإنسان ، أو كل فرد من أفراده . ﴿ من نطفة ﴾ مُوَيْهة ، وهى القليل من المـاء ، كما ذكر فى ختـام السورة السابقة . فتكون فاتحة هذه السورة مرتبطة بخاتمة تلك ، ومقررة لمضمون ما ذكر فيها . وهذه النطفة ﴿أمشاج﴾ أى أخلاط واحدها مِشْجٌ ومَشَجٌ ومَشِيجٌ ؛ يقال مشج الشيئين ، ومشج بينهما إذا خلطهما ومزج أحدهما بالآخر . ووصف [النطفة] وهى مفرد بالأمشاج وهى جمع على عادة العرب فى طائفة من كلمـات لغتهم هى جموع لكنهم يصفون

نبتليه

بها المفردات اعتبارا بأجزائها : فيقولون مثلا "ثوب أخلاق" كما يقولون "ثوب خَلَق" ويريدون في الأول أن الخلوقة أي البلى عمت جميع أجزائه ولم تقتصر على بعضها. أما قولهم ثوب خلق بالإفراد فليس نصا في خلوقة جميع الأجزاء، بل يحتمل أن يكون بعض أجزائه خلق و بعضها غير خلق. وهكذا نطفة أمشاج فإنه يدل على أن كل جزء منها مشيج مزيج من طبائع مختلفة ، وعناصر متعددة .

وأمشاج البدن عناصره وطبائعه التي يتركب منها . فالآية تشير إلى أن العناصر والطبائع التي يتركب منها بدن الإنسان لحين اشتداده وتمام نموه كانت مخبوءة في النطفة الصغيرة والمويهة الحقيرة التي تكون منها ، و إذا كان الإنسان قد ركب من طبائع أمشاج مختلفة فهو يورّث تلك الطبائع بالضرورة أنساله وأعقابه ، فتنتقل إليهم ، وتتوزع بين أفرادهم ، على تفاوت في ذلك من حيث الكيف والكم ، والقوة والضعف ، والأحوال الأخرى ، وهذا معنى قوله تعالى : (وقد خلقكم أطوارا) عند من قال من المفسرين إن المراد بالأطوار الغرائز المتباينة ، والطبائع المختلفة التي ركبت في فطر البشر .

ولماذا يارب خلقت الإنسان هكذا أمشاجا ذا طبائع مختلفة ، غرستها فيه منذ كان نطفة، ثم نقلتها إلى أفراده بعد أن شبوا وكبروا وتفرقوا على وجه البسيطة ؟ قال تعالى في جواب هذا السؤال : إنا خلقناه كذلك ﴿ نبتليه ﴾ ، أي مريدين ابتلاءه واختباره فيما نوحيه إليه من الشرائع والتعاليم ، وفيما نمهده أمامه من سبل التكاليف ، لنرى أيكفر أم يشكر؟ ويستقيم في سيره أم يضل ويعثر؟ ولو لم يكن نوع الإنسان مخلوقا مشيجا من طبائع مختلفة ، وغرائز متباينة ، بل كان ذا عنصر بسيط ، وطبيعة واحدة لا اختلاف فيها ولا تباين لكانت أفراده كذلك ، فيندفعون في أعمالهم ومساعيهم إلى سلوك طريقة واحدة ، والتزام شاكلة فاردة ، فلا يتم الابتلاء والاختبار الذي أراده تعالى في قوله (نبتليه) ، ولا يبقى معنى للتشريع والتكليف ، بل لم يكن عالم بشرى ولم ينشأ عمران إنساني ، وربما كان هذا هو تأويل قوله تعالى في سورة هود : (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة) أي ذات صبغة في الطبائع والغرائز واحدة . لكنه تعالى لم يشأ ذلك ليتم قيام العالم الإنساني ويبلغ طور كماله ، فجعلهم أمما مختلفة في الطبائع والغرائز والاستعدادات فهم بسبب ذلك يختلفون في مساعيهم ، ويتنافسون في أعمالهم وسائر شئونهم (ولا يزالون) هكذا (مختلفين) اختلافا يؤدّي ببعضهم إلى سعادته ، وببعضهم الآخر إلى شقاوته ، (إلا من رحم ربك) أي لكن الموفقين ممن رحمهم الله وأراد لهم السعادة يسلكون سبلها ، ويردون

فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ

مشارعها (ولذلك) أى لأجل هذا الاختلاف الذى يتوقف عليه قيام أمرهم، ونشوء عمرانهم وتكامل اجتماعهم — (خلقهم) سبحانه وتعالى .

قلنا : إن الله تعالى خلق الإنسان من نطفة أمشاج فكان ذا طبائع أمشاج ليتم الابتلاء والاختبار . ولكن هل يتم ذلك من دون أن يكون للبتلى الممتحن عقل ونطق واختيار ؟ كلا ولذلك قال تعالى : ﴿ فجعلناه سميعا بصيرا ﴾ أى خلقناه من نطفة ذات أمشاج لأجل امتحان أمره بالتكاليف والشرائع (فجعلناه) من أجل ذلك ، ومن أجل أن تقوم الحجة عليه (سميعا) ذا سمع يسمع به الوحى والحكمة والشرائع ، (بصيرا) ذا بصر يبصر به الآيات والعبر ، ويسعى بنوره إلى تلقى العلم والمعرفة، وما به يقوم أمره ، وينتظم حاله ، فلم يبق له — بعد أن منحناه السمع والبصر — من حجة يحتج بها ، أو عذر يتعلل به .

ويحتمل أن يكون المراد بقوله : (فجعلناه سميعا بصيرا) : إننا جعلناه ذا عقل وإدراك يميز به الخير من الشر ، والحق من الباطل ، ويتمكن من اختيار ما به صلاحه وسعادته . وإنما كان قوله : (سميعا بصيرا) دالا على ذلك ، لأن استجمام عقل الإنسان ، واستجماع قواه ومداركه إنما يكون من طريق هاتين الحاستين — السمع والبصر — ولو ولد البشر صما عميا منذ أول نشأتهم على وجه البسيطة ما كان لهم من العقل والإدراك مثل ما لهم اليوم ، أو ما كانوا بشرا ، بل مخلوقا آخر له سنن لحياته ونواميس لمعيشته الله أعلم بها .

أهذا يارب كل ما منحته الإنسان وسلحته به إرادة الابتلاء والاختبار الذى كتبته عليه مذ خلقته ؟ أم هناك شيء آخر وراء ذلك ؟ فإنّ عقل الإنسان مهما حصف ، ومداركه مهما استحكمت — تبقى معرضة للغى والزيغ مرة ، والحيرة والاضطراب مرة أخرى ؟ قال تعالى : ﴿ إنا ﴾ فوق ما منحنا الإنسان من نعمة العقل والإدراك ﴿ هديناه ﴾ دللناه وأرشدناه وأريناه ﴿ السبيل ﴾ والمراد بالسبيل جنس السبيل كأنه يقول : أشرعنا أمام عينيه السبل المختلفة مذ أوحينا إليه شرائعنا بواسطة الرسل . وقد تضمنت هذه الشرائع أمهات الفضائل والأعمال الصالحة ؛ وأمرناه بممارستها . واتباع طريقها ، كما أبنا له فى هذه الشرائع الذنوب والآثام التى لا نرضاها له ونهيناه عن إتيانها ، وسلوك طريقها . أنزلنا له ذلك ، ودللناه عليه ، ثم إنه بعد هذا وبعد أن

إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ سَلَـٰسِلَا۟ وَأَغْلَـٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾
إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ

منحناه العقل — ﴿ إما ﴾ أن يكون ﴿ شاكرا ﴾ لنعمتنا ، فيسلك سبيل الخير والطاعة ، فيستحق رضانا ، وندخله دار كرامتنا ، ﴿ وإما ﴾ أن يكون ﴿ كفورا ﴾ لأنعمنا ، فيخالف أمرنا ، ويكذب وحينا ، ويختار لنفسه سبيل الشر والفجور ، فيستحق سخطنا ، وندخله دار عذابنا . فالله تعالى دل الإنسان على سبيلي الشكر والكفر ، وعليه هو أن يختار سلوك هذا أو ذاك . وهذه الآية من جملة الآيات الكثيرة الدالة على أن للانسان إرادة واختيارا هما مناط التكليف .

قوله ﴿إنا أعتدنا الخ﴾ شروع فيما أعده الله يوم القيامة لكل من فريق الشاكرين الطائعين ، والمعاندين الجاحدين . ومعنى (أعتدنا) أعددنا وهيأنا . و[السلاسل] القيود ، وقالوا إنها تكون فى الأرجل . أما [الأغلال] فالأطواق من حديد أوقد ، وتكون فى الأيدى . و[السعير] النار الموقدة .

[والأبرار] جمع بر بفتح الباء ، والبر والبار من جمع فى نفسه بين الصدق والتقوى والإخلاص إلى الله والإحسان إلى خلقه . و[الكأس] كما تطلق على الزجاجة بشرابها تطلق على الشراب نفسه . وضمير [مزاجها] يرجع إلى الكأس بالمعنى الثانى . وكل شيئين اختلطا كان أحدهما مزاجا لصاحبه ، فمزاج ذلك الشراب الذى يشرب منه الأبرار كافور و[الكافور] طيب معروف يستحضر من أشجار ببلاد الهند والصين ، وهو من أنفس الطيوب عند العرب . والمراد أن من شرب تلك الكأس وجدها فى طيب رائحتها وفوحان شذاها كالكافور .

ولما ذكر أن الأبرار يشربون شرابا هذه صفته عاد فمدحه بقوله : ﴿عينا يشرب بها عباد الله﴾ فعينا منصوب على الاختصاص بالمدح ، وفى ذكرها زيادة بيان للشراب الذى يشربه أولئك الأبرار ، من حيث إنه مستمد ومستق من تلك العين . وفعل [يشرب] يتعدى إلى مفعوله بنفسه تارة فيقال يشربها ، وبالباء تارة كما فى الآية فيقال يشرب بها ، ومنه قول عنترة فى ناقته :

شَرِبَتْ بماء الدُّحْرُضَيْن فأصبحت زوراءَ تنفر عن حياض الديلم

والدحرضان ماءان يقال لأحدهما "دحرض" . وللآخر "وسيع" فغُلِّب دحرضا لشهرته على الآخر . يقول : إن ناقته شربت من ماء هذين الموردين ومن ثم أصبحت مائلة نافرة عن الحياض الأخرى المسماة "حياض الديلم" وقد اختلفوا فيها وفى سبب تسميتها بحياض الديلم اختلافا كبيرا .

يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾
وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ

وقال البصريون الباء فى الآية وفى قول عنترة وأمثالها زائدة كزيادتها فى قوله تعـالى : ﴿ ألم يعلم بأن الله يرى ﴾ ، وفى قول الشاعر :

هن الحرائر لا أرباب أخمرة   سود المحاجر لا يقرأن بالسور

وفى قولهم : " تكلم فلان بكلام حسن " ، فيجوز حذف الباء فى الكل .

و ﴿ عباد الله ﴾ هم الأبرار المذكورون ، أعاد اسمهم بهـذا الوصف تكريما لهم ، وتشريفا باضافتهم إليه تعالى . و [فَجَّـر] المـاءَ بالتشديد مبالغة فى فجر الثلاثى إذا بجسه وشق له طريقا يجرى فيه بشدة بعد أن كان محبوسا . وقوله ﴿ يفجرونها ﴾ وصف للعين التى يشرب ماءها الأبرار . يقول : إن تلك العين مواتية لهم فى الانبثاق والجريان ، فهم ينتفعون بها ، ويتناولون ماءها كيفما شاءوا وأحبوا . وسيأتى لنا فى هذه السورة بيان النعيم الذى يكون للأبرار فى الجنة ، والعذاب الذى يكون للفجار فى جهنم .

كأن قائلا يقول : وبماذا استحق الأبرار منك هـذا الإكرام يارب ؟ فأجاب بقوله : ﴿ يوفون بالنذر ويخافون الخ ﴾ ، فذكر من خلائقهم التى استحقوا بهـا ذلك ثلاث خصال : خوفهم يوم القيامة ؛ فإن الخوف الحق منـه يجعل المرء ينشط للطاعة ، وعمل الصالحات ، وممارسة الفضائل ، واجتناب المعاصى . وإن لم يفعل لم يكن خائفا ، ولم يكن من الأبرار وإن اتسم بسمتهم ، وادّعى أنه مستقيم على مثل طريقتهم .

و (مستطيرا) منتشرا فاشيا فى كل جهة . وأكثر ما يستعمل فى ما فيه نار أو نور : يقال: استطار الحريق ، واستطار الفجر والبرق .

والشر والشَّيْبُ يستعار لها اشـتعال النار كثيرا ، فناسب أن يقال فيهما اسـتطار . ويقال أيضا استطار الغبار إذا سطع وانتشر .

وذكر من خلائق أولئك الأبرار أيضا العناية بضعفاء البشر ومواساتهم ، والاجتهاد فى إيصال كل خير إليهم ، ودفع كل ضر عنهم . فقال تعالى : ﴿ ويطعمون الطعام الخ ﴾ . وقد قلنا إن هذا

مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾

الخلق من أخص أخلاق الأبرار، ومن ثم قال الحسن البصري : "البر من لا يؤذى الذر" . وإنما ذكر من ضروب المواساة إطعام الطعام لكونه الأصل فى قيام البنية ، وحصول الحياة ، وإلا فإن البار لا يقتصر من عمل الخير ومعونة الضعفاء على الإطعام فقط . وسيأتى . وقد عم فى عنوان هؤلاء الضعفاء أولا فقال ﴿ مسكينا ﴾ والمسكين مشتق من السكون ، وهو الذى جعله فقره أوضعفه أو ذله أو انقطاع أسباب الدنيا عنه — ساكنا قليل الحركة بحيث لا يُفْطن إليه فيعطى ، ولا يعتنى به فيواسى . ثم خص من هؤلاء المساكين نوعين هما أشد عرضة للضياع والتلف من سائرهم : [اليتيم] وهو الصغير الذى فقد والده ولم يبلغ مبلغ الرجال ، أو المراد به هنا من فقد كافله من أب وأم وغيرهما فأصبح وحيدا بمعزل عن الناس ؛ فإن اليتيم فى اللغة المنفرد من كل شيء حتى سموا البيت المنفرد والبلد المنفرد والرملة المنفردة يتيما لذلك . فهذا الصغير المنفرد عن الكافل فى مدرجة الهلاك والضياع ، وإن العناية به بالتربية والتعليم والإطعام والإلباس من سمات الأبرار ، والتفريط فى حقه وإهمال أمره من صفات الفجار .

ومن الضعفاء الذين خصهم القرآن بالذكر من بين المساكين ، وحض على مواساتهم وإطعامهم والعناية بهم [الأسير] ، ويعنى به من كان من غير أبناء ملتنا إذا وقع فى أيدينا بعد حرب وقتال . أما مواساة الأسير إذا كان من أبناء ملتنا فبالطريق الأولى . هؤلاء الأسارى — لمخالفتهم لنا فى الدين والقومية واللغة أحيانا ، ولانقطاعهم فى بلادنا عن الناصر والمعين ، ولما تأصل بيننا وبينهم من الأحقاد والعداوات — يصبحون عرضة للإيذاء والتحقير والعنت . فالقرآن هتف بالمؤمنين منبها لهم ، ومحذرا من إجاعتهم وإرهاقهم وإساءة معاملتهم مذ قال ﴿ وأسيرا ﴾ أى ومن صفات الأبرار أنهم يطعمون الأسير غير المسلم ، ويرفقون به ، ولا يَدَعون أحدا يخلص بشر أو أذى إليه ، ولا يحملونه فوق طاقته من الأعمال .

تقول ، ومن أين فهمت النهى عن الأذى والله تعالى إنما أمرنا بإطعامه ؟ أقول : إن هذا على حد قوله تعالى : (ولا تقل لهما أف) . نهانا عن كلمة أف للوالدين ، فكان نهيا عن سائر ضروب الإغضاب ، وهنا نهانا عن إجاعة الأسير فكان أمرا بالمواساة العامة ونهيا عن سائر ضروب الإيذاء ؛ لأن الأذى النفسى أشد نكاية وإيلاما من الأذى الجسمى ، وليس ذكر

الطعام إلا مثالا ، قال المفسر النيسابوري : " ثم إن الإطعام ليس بواجب على التعيين ولكن الواجب مواساته بأي وجه كان ، وإنما عبر عن المواساة بالإطعام لأن سبب نزول الآية كان كذلك ، ولأن المقصود الأعظم من أنواع الاحسان هو الطعام الذي به قوام البدن ؛ يقال : " أكل فلان مال فلان إذا أتلفه بأي وجه كان ، وإن لم يكن بالأكل نفسه" اه .

أما أن المراد بالأسير الأسير غير المسلم فهذا ظاهر من أن المخاطبين لحين نزول هذه الآية لم يكن يقع في أيديهم إلا الأسارى من مشركي العرب . وقد نقل عن عكرمة وقتادة أنهما قالا في تفسير هذه الآية : " لقد أمر الله بالأسارى أن يحسن إليهم وإن أسارى الصحابة يومئذ لأهل شرك "، وقال الحسن البصري : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤتى بالأسير فيدفعه إلى بعض المسلمين فيقول : " أحسن إليه "، فيكون عنده اليومين والثلاثة ، فيؤثره على نفسه . وكفى بهذا منقبة للقرآن ، وشهادة على سمو آداب الإسلام .

وقوله : (على حبه) أي على حب الطعام . والمعنى أن أولئك الأبرار مع حاجتهم إلى ذلك الطعام في سد جوعتهم وجوعة عيالهم يطيبون نفسا عنه للبؤساء ، ويؤثرونهم به على أنفسهم .

أما الخصلة الثالثة التي استحق بها الأبرار رضاء الله وكرامته فهي الوفاء بالنذر . وأنت ترى أنه خص هذه الخصلة بالتقديم على الخصلتين الأخريين ، وليس ذلك لأن المراد بها أن ينذر المؤمن لله صيام يومين ، أو صلاة ركعتين ، أو إطعام رغيفين ، ثم يفعل ما نذره - ليس المراد ذلك وإن كان الوفاء بما ذكرنا مطلوبا شرعا ، وإنما المراد بالوفاء بالنذر الذي جعله الله من صفات الأبرار في قوله تعالى : (يوفون بالنذر) - قوة الإرادة ؛ فلا يأخذ على نفسه عمل خير ، أو ممارسة فضيلة ، أو قياما بأمر نافع له أو لقومه دنيا وأخرى - إلا أمضاه ووفى به . ويدخل في ذلك الوفاء بما نذر من قربة أو طاعة . أما أن الواحد منا يفكر في عمل صالح ينفع قومه ، ويعلن أنه يريد القيام به والإقدام عليه ، ثم يتقاعد عنه ويفتر ، ويماطل إذا سئل عنه ويعتذر - فهذا هو ضعف الإرادة الذي عابه القرآن في غير ما موضع من آياته ، ولم يجعله من خصال الأبرار الذين يستحقون دخول جناته .

قال ابن جرير في تفسيره : " والنذر هو كل ما أوجبه الإنسان على نفسه من فعل ، ومنه قول عنترة :

الشاتِمَيْ عِرضي ولم اشتمهما والناذِرَيْن إذا لم ألقهما دمي اه

ولا يخفى أن سفك دم عنترة الذي نذره ابنا ضَمْضَم ليس من القربات في شيء . فهذا هو النذر في لغة العرب ، وهذا هو طريق استعماله لحين نزول القرآن . ثم لما شاع استعماله في نذر

إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾

القربات والصدقات لم يعد يفهم منه إلا نذر هذه الأشياء : ككثير من كلمات اللغة الواردة فى القرآن والسنة ، اختلفت معانيها باختلاف الزمان [١] ، وعلى المفسر المتقن أن ينتبه إلى ذلك الاختلاف . وليفطن إلى أن الوفاء بالنذر الذى مدحه القرآن فى هذه الآية عبارة عن قوة الإرادة التى من آثارها إبراز كل عمل صالح نافع إلى ساحة الوجود بعد أن جرى التصميم عليه فى ساحة الفكر ، وإن لم يبرزه المفكر لم يكن موفيا بالنذر ، ولم يكن من الأبرار الذين تَصْدُق عليهم هذه الآية ، بل تصدق عليه آية (يأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ؟ كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) .

وقوله ﴿إنما نطعمكم﴾ الخ ليس من قول أولئك الأبرار المطعمين بألسنتهم ، بل ليس من المادح أن يخاطبوا به هؤلاء المساكين المتحلقين حول موائدهم ، وإنما هو مما قاله الوحى عنهم مشيرا إلى أن حالهم ناطقة بذلك . وقال مجاهد وسعيد بن جبير : " أما والله ما قالوا ذلك بألسنتهم ، ولكن علمه الله من قلوبهم ، فأثنى به عليهم ، ليرغب فى ذلك راغب " .

و﴿شُكورا﴾ مصدر شكر كالشكر والشكران ، والمعنى أنهم يواسون الفقراء والمساكين إرادة اكتساب رضاء الله بخدمة الخلق الذين هم عياله والاحسان إليهم ، لا لتحصيل غرض دنيوى أو مصلحة أو مكافأة تعود عليهم ، وإلا لم يكن المواسى محسنا إلى المساكين ، بل محسنا إلى نفسه ولم يكن خادما لعيال الله ، بل خادما لمصلحته ، ولا مقرضا ربه قرضا حسنا ، بل تاجرا يبغى الربح من وراء سلعته .

رووا عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها أنها كانت تبعث بالصدقة إلى أهل بيت من الفقراء ، ثم تسأل الذى أرسلته بالصدقة : ما قالوا لك ؟ فإن ذكر أنهم دعوا أخذت هى بالدعاء لهم ، ليبقى عملها الصالح خالصا لوجه الله ، لا واقعا فى مقابل عوض من دعائهم .

---

(١) من ذلك كلمة الولى التى جاءت فى القرآن بمعنى الناصر كما فى قوله تعالى : (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولاهم يحزنون) ثم أصبح لها فى العرف معنى آخر وهو ذو الكرامات من المشايخ . وكلمة (الصالح) التى جاءت فى القرآن بمعنى القادر على العمل كقوله تعالى : (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون) أى القادرون على عمارتها ، ثم أصبح لها معنى آخر وهو المسلم الذى يصوم و يصلى ولا يرتكب كبيرة .

إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ
وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾

قوله ﴿إنا نخاف﴾ الخ هذا أيضا مما يقوله الأبرار بلسان حالهم فى السبب الذى بعثهم على إطعام المساكين ، ومواساة المستضعفين : ذكروا أولا أنهم إنما أطعموهم لوجه الله ، ورغبة فى رضاه لا طمعا فى جزاء مجازى ، أو ثناء مثنى ، وقالوا هنا إنهم إنما أطعموهم لكونهم يخافون من أيام ربهم ﴿يوما عبوسا قمطريرا﴾ وهو يوم القيامة الذى ذكر من قبل أنهم يخافونه ؛ ووصفه باستطارة شره ، وفظاعة أمره ، وهذا هو الخوف الحق الذى ينفع صاحبه ؛ فيحمله على الرفق بالفقراء ، ومواساة الضعفاء .

وأراد من وصف اليوم [بالعبوس] شدّته وعظم هوله على الخلائق ، أو أراد أن الخلائق أنفسهم يكونون من شدة الغم والقلق الذى يغشاهم فى ذلك اليوم ذوى عبوس شديد ، فنسب العبوس إلى اليوم لا إليهم توسعا ، نحو قولهم : "نهاره صائم" ، وإنما الصائم الشخص لا اليوم ، ونحو :

وأخو الهموم — إذا الهمومُ تحضَّرت جُنْحَ الظــلام — وِسادُهُ لا يرقدُ

جعل الوساد لا يرقد ، وإنما الذى لا يرقد صاحبه .

وقوله : ﴿ قمطريرا ﴾ أى شديدا مظلما عصيبا ، ويقولون "شر قمطرير" أى شديد ، ورجل قمطرير ، شديد العبوس ، قد قبض ما بين عينيه من فرط الغم .

هؤلاء المحسنون الأبرار ، الذين خففوا آلام المرهقين المتعبين ، وعطفوا على ذوى البؤس والعجز فى الدنيا خوفا من أهوال يوم القيامة — نالوا الثواب على حسن صنيعهم ، ﴿فوقاهم الله﴾ الذى فعلوا لأجله ما فعلوا من العمل الصالح ﴿شر ذلك اليوم﴾ أى أذى ذلك اليوم العبوس الذى خافوه ، ودفع عنهم ما كانوا يحذرون من شدّته وهوله ومكروهه ، ﴿ولقاهم﴾ أى ألقى عليهم مكان الشدّة والرهق والعبوس الذى يغشى الفجار ﴿نضرة﴾ حسنا وبشاشة وبريقا فى وجوههم ﴿وسرورا﴾ أى فرحا وغبطة وحبورا فى نفوسهم ، ﴿وجزاهم﴾ أثابهم وكافأهم ﴿ بما صبروا ﴾ فى مقابل صبرهم على مرارة الطاعة والعمل الصالح والإيثار بالمال ﴿جنة﴾ دخول جنة ذات شأن من الجنات التى أعدّها لأهل طاعته ، ﴿وحريرا﴾ أى وأثابهم أيضا حريرا .

مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾

وفى الآية إيجاز ، آخذ بأطراف الإعجاز . ذلك أنه أشار بقوله (جنة) إلى ما يتمتع به أولئك الأبرار فى دار الكرامة من صنوف الثمار الشهية ، والمطاعم الهنية ؛ فإن الجنة لا تسمى جنة إلا وفيها ذلك . كما أشار بقوله (حريرا) إلى ما يتمتعون به من ضروب اللبوس والزينة التى من أنفسها وأغلاها عند العرب الحرير . فهو تعالى قد جمع لهم فى الثواب والمكافأة بين الشعورين : الشعور بلذة الطعام ، والشعور بلذة اللباس وكل هذا تنازل من العناية الإلهية فى تصوير المسرات الأخروية إلينا معشر البشر ، وتقريبها من متناول أذهاننا . وسيأتى زيادة إيضاح لذلك .

ومن مظاهر الخفض والدعة والنعيم التى يتقلب فيها أولئك المحسنون الأبرار ما وصفهم الوحى به فى قوله ﴿متكئين فيها﴾ أى فى الجنة ﴿على الأرائك﴾ جمع أريكة وهى السرير ترخى عليه الحَجَلة ، والحجلة هى ما يسدل على السرير من فاخر الثياب والستور ، ويتخذ عادة للعرائس ، ومن ثم يفرغ الوسع فى تحسينها وتزيينها ، فإذا أريد من الحجلة الوقاية من البعوض سميت كِلَّة ، ونسميها اليوم " ناموسية " .

ومعنى اتكائهم على الأرائك أنهم جالسون عليها متمكنين . وللاتكاء معنى آخر وهو أن يجلس المرء على أحد شقيه معتمدا على وسادة أو نحوها ، وهذا المعنى هو المشهور المتبادر من الاتكاء عند الإطلاق . ولا تناسب إرادته فى الآية ؛ لأن الأرائك لا يتكأ عليها بهذا المعنى ، وإنما يتكأ على الوسائد والنمارق ، اللهم إلا إذا جعلناه من موجز الكلام وأن أصله هكذا " متكئين على النمارق جلوسا على الأرائك " فحذف " على النمارق " لدلالة " متكئين " عليها . وحذف " جلوسا " لدلالة " على الأرائك " عليها . ويكون هذا الإيجاز كقوله بعده فى صفة الأبرار أيضا إنهم ﴿لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا﴾ يريد أنهم لا يرون فى الجنة شمسا ولا قمرا . ولا يحسون حرا ولا زمهريرا . فمذ نفى رؤيتهم للشمس ألق فى الخلد أنهم لا يرون القمر أيضا ، كما أشعر أنهم لا يحسون الحر لأن القمر والحر كليهما من متولدات الشمس ، فهى التى تنير القمر فينير علينا ، وهى التى تشع حرارتها فتشعر بها أجسامنا ، أو أنه لما نفى أنهم يرون الزمهرير وهو البرد أشعر أنهم لا يرون الحر أيضا ، لأن الحر أخو البرد ، فانظر كيف استوعب بهاتين الكلمتين طائفة من المعانى . والقصد أن فى الجنة نورا خاصا ليس منبعثا عن شمس ولا عن قمر ، وأن هواءها معتدل : ليس فيها شىء من حر الشمس المرمض ، ولا من برد الزمهرير المؤذى ، وهذا

وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ

هو المراد بالزمهرير فى قول الأكثرين ، وقال بعضهم : إن الزمهرير هنا اسم للقمر فى لغة طى ، قال شاعرهم :

وليلة ظلامها قد اعتكر   قطعتها والزمهرير ما ظهر

وعطف الزمهرير فى الآية على الشمس ربما أشعر بأن المراد منه القمر ، فهو تعالى يقول إنهم لا يرون فى الجنة شمسا ولا قمرا ، وإن لهم من نورها الخاص بها ما يغنيهم عن ضياء هذين النيرين .

قوله ﴿ودانية﴾ الخ عطف على (متكئين) أو على (لا يرون) وكلها أوصاف للأبرار،وأحوال من الضمير الراجع إليهم فى (وجزاهم) ، وضمير (ظلالها) و (قطوفها) للجنة ، والمراد بظلالها ظلال أشجارها ، وهو كناية عن اشتباك أغصان تلك الأشجار وتهدلها من حوالى الجالسين تحتها ، وإلا فإن الظلال أثر من آثار ضياء الشمس ، وقد ذكر آنفا أنه لا شمس فى الجنة ، اللهم إلا أن يكون لنور الجنة الخاص بها ظلال تتولد عنه ، و [القطوف] جمع قطف بكسر القاف العنقود ساعة يقطف ، ومعنى ﴿ذللت قطوفها﴾ أن عناقيد ثمارها قد خلقها الله سهلة القطف ، قريبة من أيدى المتناولين ، لا يحول بينها وبينهم بعد ولا شوك .

يقال ذل الرجل ذلا بضم الذال إذا هان وحقر بعد عز،فهو ذليل،وذل البعير ذلا بكسر الذال سهل وانقاد بعد صعوبة ، فهو ذلول ، ومن هذا الأخير "بقرة ذلول" و"ناقة ذلول" — ويلفظها الناس "دلول" بالدال المهملة — (وجعل لكم الأرض ذلولا) ، وفى خطاب النحل : (فاسلكى سبل ربك ذللا) ومنه تذليل القطوف هنا،ويقولون : ذُلِّل الكرمُ إذا دُلِّيت عناقيده، و[الآنية] جمع إناء ، وهو الوعاء يوضع فيه الطعام والشراب ، وقد فهم بعضهم من قوله : (ويطاف عليهم بآنية) أن أهل الجنة يأكلون طعامهم على الطرز الذى عليه أهل الترف اليوم مذ يحمل الغلمان صحاف الطعام حول المائدة ، ويدنون من الآكلين واحدا واحدا ، فيتناول كل منها حاجته .

وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾

وعطفُ قوله﴿وأكواب﴾ على (آنية) يشعر أنه يريد بالآنية صحاف الطعام ؛ لأن الأكواب أوانى الشراب ، وهى جمع كوب ، والكوب قدح مستدير الرأس لا عروة له ولا خرطوم ، ونحرفه اليوم فنقول "كباية" .

ذكر أولا أن آنية الطعام من فضة ، ثم لما جاء لوصف أكواب الشراب قال ﴿ كانت قواريرا قواريرا ﴾ و[القوارير] جمع قارورة، وهى وعاء الزجاج المعروف، فهو يقول إن الأكواب زجاجات، ثم قال إن تلك الزجاجات متخذة ﴿من فضة﴾، فكيف يكون ذلك والفضة غير الزجاج، والمعدنان مختلفان أيما اختلاف ؟ ولمكان هذا الإشكال الذى خامر نفس السامع أكد كلمة القوارير مكررا لها، فهو يقول: إن هذه الأكواب مع كونها متخذة من فضة هى قوارير هى قوارير، فالسامع ينتبه بهذا التكرار إلى أن الأمر جدّ ، وأن الحكم عليها بأنها قوارير ليس إلا لمعنى دقيق اقتضى وصفها به مع أنها فى ذاتها من فضة ، وبعد التأمل يدرك أنها إنما سميت قوارير لكونها رقيقة شفافة شفوف القوارير، فهى إذن قد جمعت بين بياض الفضة وحسنها وصفائها، وشفوف القوارير ورقتها ولألائها .

تقول : ولماذا أقحم كلمة (كانت) بين (أكواب) و (قوارير) وهى لو طرحت لصح المعنى ؟ أقول (كانت) هنا هى من الكون الذى يقع بعد قوله تعالى للشيء (كن فيكون) و " كن فكان " أى فيتكوّن ذلك الشيء ويحصل بمجرد تعلق مشيئة الله به . فهو إذن من عالم الإرادة الإلّهية لا من عالم الأسباب الدنيوية . فتكون تلك الأكواب بما جمعته من صفات الإبداع فوق كل ما يتصوّره العقل من صنوف الأكواب التى تعاورتها الصناعة الدنيوية .

والضمير فى ﴿ قدروها تقديرا ﴾ يصح إرجاعه إلى السقاة الطائفين بالأكواب كما يصح أن يكون راجعا إلى الشاربين المطوف عليهم بها ، فالمعنى على الأول أن السقاة يقدّرون الشراب الذى يقدّمونه للشاربين فى تلك الأكواب بحيث لا يزيد على رغبتهم ولا ينقص عنها ، فيكون ذلك أهنأ لهم وأمرأ . والمعنى على الثانى أن الشاربين قدّروا فى نفوسهم تلك الأكواب وتصوّروها على أوضاع وأشكال مختلفة ، فكانت إذا تداولوها رأوها طبق أمانيهم ، وعلى مثال تقديرهم .

وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾

من أن مزاج الكأس التى يشرب بها الأبرار فى الجنة كافور ، وأن العين التى يُتناول منها شراب تلك الكأس يفجره أولئك الأبرار ويجرونه أنى شاءوا من الجنة ، وقد ذكر هنا أن تلك العين (تسمى سلسبيلا) وأن مزاج الكأس التى يسقونها يكون (زنجبيلا)، وذكرنا أيضا أن معنى كون مزاجها كافورا فوحان رائحة الكافور منها عند شربها ، ولا ينافى هذا أن يفوح منها أحيانا رائحة الزنجبيل : تفوح الرائحتان معا ، أو مرة هذه ومرة تلك .

وقيل المراد أنهم يجدون طعم الزنجبيل فى الشراب ، لا أنهم يشمون شذا الزنجبيل من الشراب شما .

و[الزنجبيل] عروق نبات كالقصب تمتد فى الأرض ، ويتولد فيها عقد حريفة الطعم ، معرب "شنكبيل" بالفارسية . والعرب يستلذون طعمه كما يستلذون رائحة الكافور . قال الأعشى :

كأن القرنفل والزنجبيـــل باتا بفيها وأريا مَشُورا

يصف طعم فم محبوبتـه وحلاوته فى المذاق . [والأَرْىُ] العسل و[المشور] اسم مفعول من شار العسل إذا اجتناه من خليتـه . ومثل الزنجبيل فى استلذاذهم طعمه فى الخمر الفلفـل ؛ قال حسان بن ثابت :

ولقد شربت الخمر فى حانوتها صهباء صافية كطعم الفلفل

وقال امرؤ القيس :

كأن مكاكىَّ الجواءِ غُدَيَّةً صُبِحْن سُلافاً من رحيق مفلفل

يقول كأن طيور هـذا الوادى وقت الصـباح شربت رحيقا تفوح منـه رائحة الفلفل ، أو يلذع اللسان لذع الفلفل ، ولذلك أكثرت الصدح والتغريد .

وسميت العين (سلسبيلا) لسهولة مساغها وانحدارها فى الحلق . وأصـل المـادة [سلس] تدل على اللين والسهولة والانقياد حتى يقولون "فى كلام فلان سلاسـة" يعنون رقة وانسجاما وسهولة . ويزيدون على هذه المـادّة لاما فى آخرها فتدل على غاية السلاسة : فيقولون "سلسل" و "سلسال" يريدون بهما المـاء العذب السهل الجريان فى الحلق لعذوبته وصفائه . ويزيدون

وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا (١٩)
وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا (٢٠)

عليها أيضا باء فتفيد إذ ذاك غاية الغايات فى السلاسة فيقولون : "سلسبيل" ويريدون به الماء الكثير السوغان فى الحلق . وبذلك سميت تلك العين فى الجنة سلسبيلا ؛ لأن ماءها هذه صفته . وهو بذكر السلسبيل دفع توهم الشعور بحرافة الزنجبيل ولذعته فى المذاق، فكأنه يقول: إن الكأس تمزج بالزنجبيل فيشعر الشاربون بطعمه لكنهم لا يشعرون بحرافته ، فيبقى الشراب سلسبيلا سهل المساغ فى الحلق .

قوله : ﴿ويطوف عليهم﴾ أى ويطوف على أولئك الأبرار بالآنية والأكواب وسائر ضروب الخدمة ﴿ولدان﴾ وُصَفَاء ﴿مخلدون﴾ من الخلود أى لا يموتون . وقيل لا فائدة فى هذا الوصف لأن أهل الجنة كذلك . وإنما هو من الخلود بمعنى إبطاء الشيب . والعرب تقول للرجل إذا كبر وثبت سواد شعره أو ثبتت أضراسه وأسنانه — : إنه لمخلد؛ فوصفاء الجنة مخلدون، يعنى أنهم لا يهرمون ولا يشيبون ولا يجاوزون ما هم فيه من سنّ الحداثة . ويقال لمثل هذا أيضا إنه مُقْتَبَل الشباب ، أى لم يظهر فيه أثر كبر ، بل هو كأنما يستأنف الشباب كل ساعة .

ولكن يرد على هذا القول ما أورد على سابقه ، ومن ثم جعله بعضهم من الخُلْد بمعنى السوار وبمعنى القرط أيضا ، يقول إن أولئك الولدان مسوّرون أو مقرّطون .

هؤلاء الولدان ﴿إذا رأيتهم﴾ منبثين فى جنبات الجنة مجتمعين مفترقين هنا وهناك ﴿حسبتهم﴾ فى حسنهم وجمالهم وصفاء ألوانهم ﴿لؤلؤا منثورا﴾ نثره ناثر تحت مواقع عينيك، فترى حبات منه مجتمعة متلائمة، وأخرى متفرقة متباعدة، مما يزيدها فى النفس بهاء ورواء، ويكسبها فى العين رونقا ولألاء ، هذا إذا خصصت فى النظر والتحديق إلى ما فى الجنة من مظاهر الأنس والسرور ﴿وإذا رأيت ثم﴾ أى وإذا أحببت أن ترمى ببصرك إلى ما هنالك من فخم المظاهر، ومجموع المناظر ﴿رأيت نعيما﴾ أى نوعا من النعيم لا يوصف ولا يعهد له مثال ، ﴿وملكا كبيرا﴾ أى واسعا مستوعبا لجميع ما يوفر على النفس راحتها وهناءها وسعادتها ومسراتها ، وقد أجمل فى وصف الحالة التى عليها أهل النعيم فى نعيمهم لأنه مما لا يحيط به وصف، ويعجز أهل الدنيا — ما داموا فى دنياهم — عن تصوّره ، ومعرفة حقيقته .

عَـٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ
شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَـٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾

رجع إلى ذكر طور من أطوار الأبرار فى الجنة ، وهو وصف ما يفرغ على أبدانهم من ضروب الزينة واللبوس ، فقال (عاليهم ثياب) الخ و[عالى] اسم فاعل من علاه يعلوه إذا كان فوقه ، فالمعنى تعلوهم تلك الثياب ، وتغشى ظواهرهم[1]. و[السندس] ضرب من نسيج البز ، وقيل هو رقيق الديباج ،عربى أو معرب ،أما [الاستبرق] فهو غليظ الديباج ، معرب "استبره" ، والديباج الثوب الذى سداه ولحمته حرير ، وهو معرب أيضا ، (وحُلُّوا) أى ألبسوا حلية وهى ما يزدان به الشخص من مصوغ المعدنيات أو الحجارة الكريمة (أساور) جمع سوار : زينة معدنية كالطوق يلبس فى المعاصم والزنود، وتلك الأساور (من فضة) ، وهى المعدن الأبيض المعروف، وفى سورة الكهف : (يحلون فيها من أساور من ذهب)، وفى سورة فاطر : (يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير)،ولا تناقض إذ يمكن الجمع بين الصنفين فى التحلى،أو يحلون بهذا مرة وبهذا مرة ، و[الشراب الطهور] هو البالغ فى نقائه من القذى والشوائب المادية ، أو المراد طهارته مما يكون فى الأشربة الدنيوية من الأضرار وسوء التأثير .

قوله (إن هذا كان لكم) الخ ــ مما يقال لهم أو يقوله بعضهم لبعض فى الجنة وقت تقلبهم فى صنوف نعيمها ، أو هو خطاب مستأنف من الله ليبشر الأبرار وهم فى دار الدنيا بأن ماوصف من الثواب ، وعدد من مظاهر النعيم ــ ينتظرهم فى النشأة الثانية جزاء طاعتهم له ، وأن [سعيهم] الحسن فى التزام أوامره تعالى والوقوف عند حدود شرعه [مشكور] ، ومعنى كونه تعالى يشكر عليه أن يثيب عليه خير ثواب ،وهذا هو معنى الشكر والحمد والرضا والعجب والحب والضحك إذا نسبت إلى الله ؛ إذ تستحيل فى حقه تعالى أمثال هذه العوارض البشرية ، والانفعالات النفسية .

مر فى هذه الآيات أن الله تعالى قد أعدّ للكافرين سلاسل وأغلالا ، كما هيأ للابرار أرائك يتكئون عليها ، وعليهم ثياب السندس والاستبرق ، وفى معاصمهم أساور الفضة ، و بين أيديهم ولدان كاللؤلؤ المنثور يطوفون على أولئك الأبرار بصحاف الفضة وأكوابها الصافية صفاء البلور، وقد ملئت شرابا ممزوجا بالزنجبيل والكافور .

(١) لم يتعرض المؤلف لاعراب "عاليهم" مع حاجته إلى البيان ، وقد قرئ بالرفع على أنه مبتدأ خبره ثياب ، وقرئ بالنصب ــ وهو المشهور ــ فقيل : إنه ظرف بمعنى فوقهم ، وهو خبر مقدم لثياب ، والجملة حال من الضمير المجرور فى عليهم وجعل أبو حيان عاليهم حالا من ذلك الضمير ، وثياب مرفوعا على الفاعلية له (انظر روح المعانى) المصحح .

وذكر فى مواضع أخر من القرآن وسائل مادية للذة والعذاب فوق ما ذكرهنا وأبلغ منه . وإن النفوس لتساءل عما إذا كانت هذه الوسائل والأدوات ، وأسباب اللّذوَى والبلوى مادية حسية من عين ما نعهده فى دنيانا هذه ، فهل الأغلال الحديدية كأغلالنا قاسية سوداء تقعقع ؟ والأساور الفضية كأساورنا مدورة بيضاء تلمع ؟ والخمرة المشروبة كخمرتنا سائلة حمراء تشعشع ؟ أم أن المراد بذلك شىء آخر له حقيقة روحية غير ما يفهم من ظاهر اللفظ ؟

ولعل الأسلم فى الجواب أن يقال : إننا — معشر المسلمين — نؤمن بالعالم الأخروى ، وبما وردت الأخبار الصحيحة به من وصف وسائل العذاب والنعيم اللذين يقعان فى ذلك العالم من دون أن نكلف أنفسنا عناء البحث عن حقيقتها ما دامت هى ممكنة الوقوع ، وما دامت قدرة الله صالحة لخلقها وإعدادها .

وهناك آخرون يجعلون هذه الوسائل والأسباب تمثيلا لآلام العذاب ومسرات النعيم بما اعتدناه فى حياتنا الدنيا من الوسائل والأدوات والأسباب ، بحيث يجعلنا هذا الوصف التمثيلى نتعقل تلك الآلام والمسرات على نحو ما نتعقلها ونشعر بها عند التعرض لأسبابها ووسائلها ومثيراتها فى دار الدنيا ، على أن طائفة من أبناء هذا العصر المتعلمين لم يقنعهم ما اقتصرنا عليه هنا من هذا البحث ، وتمنوا علينا أن نذكر ما هو الأحق بالقبول فى هذه العقيدة مما يلائم روح العصر ويلتحم مع معارف أهله وأحوالهم الثقافية والفكرية ولا يخرج به قائلة عن الملة . فلمثل هؤلاء كتبنا رسالة بهذا الموضوع موضوع " ملذات الجنة ما هى ؟ " . ربما طبعناها على حدة أو ألحقناها بهذا التفسير إذا يسر الله طبعه ونشره .

آيات هذه السورة من أولها تدور حول أقطاب ثلاثة :

(١) تذكير الإنسان بالبعث المكذب بخلقته الأصلية ؛ وبأن الإله الذى خلقه كذلك ، ومتعه بالحواس والمشاعر ، وأمده بصنوف النعم — قادر على خلقه ثانية بعد الموت ؛ فكيف يصح إذن أن ينكر على الله ذلك ؟ بل كيف لا يكون تعالى جديرا بأن يشكر ويطاع ؟

(٢) تخويف المكذبين بما أعده الله لأمثالهم من الأغلال والسعير .

(٣) ترغيبهم بما هيأه لهم من وسائل الغبطة والهناء إن هم شكروا وآمنوا .

وكثيرا ما كانت هذه الآيات وأمثال أمثالها معها تلقى على هؤلاء المكذبين ؛ فلا تحيك

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ
مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾

فى نفوسهم ؛ ولا يقابلونها بغير الصدود والإعراض ؛ فكان صلى الله عليه وسلم يأخذه شىء من الوجوم والضجر ؛ مذ يرى تتابع أذاهم عليه ؛ وطول إعراضهم عنه ؛ وتماديهم فى تكذيب الوحى والاستهزاء به ، فكان من المناسب بعد تلك الآيات البالغة فى تأثيرها ؛ ووقوف قريش أمامها وقفة المكذب المعاند ؛ ووجومه صلى الله عليه وسلم وضجره واستبطائه نزول العقاب الإلهى بأولئك المكذبين — أن تُشَدَّد عزيمته ؛ وتفكك عن قلبه الشريف عرا الهم والضجر بمثل قوله تعالى: ﴿إنا نحن﴾ أى لاغيرنا يامحمد الذين ﴿نزلنا عليك القرآن تنزيلا﴾ لا لبس فيه ولا ريب ؛ ووعدناك وأوعدنا المكذبين فيه بما وعدنا وأوعدنا ؛ فلا تبتئس ولا تحزن ولا تضجر ؛ فالقرآن حق ؛ ووعدنا ووعيدنا صدق ؛ ﴿فاصبر﴾ إذن ؛ وانتظر ﴿لحكم ربك﴾ أى لحين حلول وقت حكمه وقضائه الفصل فيك وفى خصومك ؛ فينتقم لك منهم ؛ وتكون الغلبة والنصرة لك ، والعقوبة والدَّبْرة عليهم . فاللام فى قوله (لحكم ربك) هى التى يسميها النحاة اللام الحينية . وإذا أرادوك على السكوت يا محمد وترك دعوتهم إلى الإيمان لقاء مال يفيضونه عليك ؛ أو عروس من بناتهم يزفونها إليك — كما كانوا بالفعل يقولون ذلك له صلى الله عليه وسلم — فلا تصغ إليهم ؛ ولا تنخدع بقولهم ؛ ﴿ولا تطع منهم آثما أو كفورا﴾ فيما يحاولونه منك ؛ ويداورونك عليه .

وقد كان أولئك المعاندون المكذبون بين منغمس فى الآثام ؛ متعاط للفسوق : كعتبة بن ربيعة ؛ فهو ينفر من الإيمان به صلى الله عليه وسلم وبالوحى ؛ لأن ذلك يحول دون تمتعه بشهواته وينغص عليه حياته — وبين غال فى ضلاله ؛ شديد الشكيمة فى كفره ؛ كأبى جهل والوليد بن المغيرة ؛ فهو ينفر من الإسلام واتباعه صلى الله عليه وسلم خشية مفارقة دينه ؛ وتوديع طواغيته فقوله : ﴿آثما﴾ إشارة إلى الفريق الأول ، وقوله : ﴿أو كفورا﴾ إشارة إلى الفريق الثانى ، و (أو) بعد الجحد تكون بمعنى الواو . فالمعنى " ولا تطع منهم آثما ولا كفورا .

ويروى أن عتبة كان يقول له صلى الله عليه وسلم : " ارجع عن هذا الأمر حتى أزوجك ابنتى ، فإنى من أجمل قريش بنات " . وكان الوليد يقول له : " أنا أعطيك من المال حتى ترضى ، فإنى من أكثرهم مالا " . ولهذا قال له ربه : اصبر حتى يقضى الله بينك وبينهم ، فيُظهر

وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾

أمرك ، ويرفع لك ذكرك ، ولا تطع أولئك الآثمين الجاحدين فيما يمنونك به من صنوف الترف والنعيم ، فدع ذلك كله ولا تشغل قلبك به ، ﴿واذكر اسم ربك﴾ فصل له واعبده ﴿بكرة﴾ غدوة قبل الظهر ، ﴿وأصيلا﴾ عشيا بعد العصر ، ﴿ومن الليل﴾ أيضا ﴿فاسجد له﴾ ، أى صل له تعالى ، فالسجود بمعنى الصلاة ، و[من] فى قوله : (من الليل) لافادة التبعيض ، إذ لابد من راحة له صلى الله عليه وسلم فى بعض الليل وصلاة فى بعض ، كما يكون ذلك فى النهار . ولما كان الليل مظنة غفلة النفس ، وغلبة النوم عليها — عاد فأكد عليه صلى الله عليه وسلم الأمر بصلاة الليل ، لكيلا يفهم من البعضية المدة القليلة منه ، بل وقتا طويلا فقال : ﴿وسبحه﴾ ، أى صل له ﴿ليلا﴾ ، أى وقتا من الليل ﴿طويلا﴾ ممتدا لايقل عن الثلث ، ولا يزيد عن الثلثين كما مر بيانه فى آية (قم الليل إلا قليلا نصفه أو انقص منه قليلا أو زد عليه) . فالليل الأول من قوله : (ومن الليل) مراد به مجموع ساعاته من الغروب إلى الشروق ، والليل الثانى وهو قوله (ليلا طويلا) مراد به وقت وحصة منه ، ولذلك وصفه بقوله (طويلا) ولو كان المراد به مجموع ساعات الليل ما ناسب وصفه بالطويل كما يظهر للتأمل ، والسجود والتسبيح مراد بهما هنا الصلاة كما أشرنا ، وكثيرا ما أريد بهما ذلك فى القرآن والسنة ، والأرجح أن المراد بالصلاة فى هذه الآية الصلاة التى كان يمارسها صلى الله عليه وسلم هو وأصحابه قبل أن تفرض الصلوات الخمس ، وكان افتراض هذه الصلوات ليلة الإسراء قبل الهجرة بسنة وبعد البعثة باثنتى عشرة سنة ؛ فهو تعالى يأمر نبيه فى هذه الآيات بالصبر على المكذبين ، وانتظار حكم الله فيهم ، والإعراض عما يمنونه به ، ويعرضونه عليه : من زبارج الدنيا ، وبالأقبال على الله ، واستيعاب طرفى النهار وهزيع طويل من الليل فى عبادته والابتهال إليه .

ثم إن الخطاب فى هذه الأوامر وإن كان له صلى الله عليه وسلم فان المراد به أيضا صحابته الذين كانوا إذ ذاك فى حاجة إلى أن يكونوا أشداء القلوب ، أقوياء الجلد والعزيمة ؛ ليقووا على الجهاد وبث الدعوة والصبر على المقاومة .

وقد شرحنا فى أول سورة المزمل ما فى أمر النبى صلى الله عليه وسلم وصحابته بالتهجد وقيام الليل وتحمل مشقات العبادة من الأثر البين فى تربيتهم النفسية ، وتقويتهم البدنية ، فراجعه إن شئت .

إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ
وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾

قوله ﴿ إن هؤلاء الخ ﴾ فيه تسلية له صلى الله عليه وسلم ، وإقناط من إيمانهم به ، واتباعهم دينه ، وذلك لما فطروا عليه من حب الدنيا العاجلة ، وإيثار لذائذها الناجزة ، فهم يتهافتون على ما بين أيديهم من هذه الشهوات ،﴿ ويذرون وراءهم ﴾ أى يدعون ويطرحون خلف ظهورهم ﴿ يوما ثقيلا ﴾ وهو يوم القيامة الثقيل الوقع ، الشديد الوطأة على هؤلاء الجاحدين المكذبين ، ومعنى طرحهم يوم القيامة وراء ظهورهم طرحهم العمل له ، وتركهم ما يؤدى إلى النجاة فيه من الإيمان والتصديق وممارسة الأعمال الصالحة ، وفى الإشارة إلى المكذبين بـ (هؤلاء) المفيد للقرب تحقير لهم ، واستصغار لشأنهم وإن كانوا يتجلببون للناس بجلابيب الكبر والعظمة .

ويحتمل أن يكون معنى الآية : أنهم منهمكون فيما بين أيديهم من عاجل لذات الدنيا وينسون أمامهم يوما قد هيئ لهم فيه عذاب ثقيل ، وهول وبيل ، فتكون (وراء) بمعنى أمام ، وكثيرا ما جاءت بهذا المعنى ، ويكون الكلام تعجيبا من حالهم ، وتعريضا بغباوتهم ، مذتركوا الحزم ولم يتدبروا الخطب وهو أمامهم .

وقوله : ﴿نحن خلقناهم الخ﴾ فيه عود إلى تليين الكلام لهم ،وترقيق الخطاب معهم ،وتذكيرهم بأنه تعالى هو لا غيره الذى خلقهم خلقا أحكم فيه صنعهم ، ووثق بالأعصاب ربط بعض أعضائهم ببعض ، فكانوا أقوياء أشداء معصوبى الخلق ، مجدولى البدن ، وهذا معنى ﴿وشددنا أسرهم﴾ يقال : "قد أُسر هذا الرجل فأُحسن أَسره" بمعنى أنه خلق فأحسن خلقه ، وأحكم تكوينه ،ومنه قول الأخطل فى صفة أفراس مجنوبة .

من كل مجتنب شديد أسره سلس القياد تخاله مختالا

يمتن الله على هؤلاء المكذبين ، بل على سائر الخلق الجاحدين بأنه تعالى خلق أجسامهم صالحة لما يحتاجون إليه فى وجوه التصرف وممارسة الأعمال ومباشرة الأسباب .

وقوله : ﴿وإذا شئنا الخ﴾ أى ليس خلقنا لهم شديدى الأسر هو مبلغ جهدنا ،ومنتهى طاقتنا (و) لكن نحن مع هذا (إذا شئنا) أن نهلكهم أهلكناهم ثم ﴿ بدلنا أمثالهم ﴾ أى بدلنا بهم أمثالهم

إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾

من البشر بحيث نخلق الآخرين خلقا يحكى خلق الأولين فى شدّة الأسر ، وإتقان الصنع ، وتوثيق الأعضاء . والآية تحتمل معنيين :

(١) أن يكون المراد بالأمثال الذين يخلقهم مكان الأولين المكذبين هم الأولون أنفسهم مذ يبعثهم من قبورهم ويحييهم بعد موتهم يوم القيامة ، فهو تعالى يقول للمكذبين إنه تعالى كما خلقهم فى الدنيا شديدى الأسر قادر على أن يخلقهم ثانية بعد الموت شديدى الأسر ويكون مغزى الآية إقامة الحجة على إثبات البعث وإمكان الحياة الثانية ؛ لأن من فعل الشيء مرة قادر على أن يفعله مرة أخرى .

(٢) أن يكون المراد أنه تعالى قادر على إهلاك المكذبين ، وأن يخلق فى دار الدنيا غيرهم أمثالهم من البشر ، لكنهم مخالفون لهم فى العمل ، فيطيعون أمره ، ولا يكذبون وحيه ، فهو تهديد لهم ، وحض على المسارعة إلى الإيمان قبل فوات الفرصة ، وتذكير بأنهم إن ماتوا هم فلا يظنوا أن أولادهم ومن يأتى من بعدهم يكونون فى العناد والتكذيب أمثالهم ، بل إن صدق الوحى وصحة دعوى محمد عليه الصلاة والسلام هى من الظهور بحيث لايخفى مكانها على أحد ، اللهم إلا من طمس على بصائرهم ، وهم هؤلاء المكذبون المخاطبون ، فيكون المعنى فى هذه الآية كالمعنى فى آيات :(وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم) ، (إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين) ، (إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد) .

﴿ هذه ﴾ إشارة إلى السورة وما اشتملت عليه من اللفظ الرشيق ، فى الأسلوب الأنيق ، والمعنى الدقيق ، فى الخطاب الرقيق . ﴿ تذكرة ﴾ ذكرى يتذكر بها العاقل ، وموعظة ينزجر بها الجاهل . ﴿ فمن شاء ﴾ من هؤلاء المكذبين الادكار والاتعاظ والانتفاع بهذه السورة والمشى على نورها ﴿ اتخذ إلى ربه سبيلا ﴾ أى أمكنه أن يتخذ من الإيمان والطاعة واتباع الحق وتصديق محمد عليه السلام سبيلا يؤدى به إلى رضوان ربه ، ودخول دار كرامته ، وذلك لما منحه من الهداية والتذكير والدلالة على الحق فى هذه السورة وسائر سور القرآن مع ما متعه الله به من نور العقل وقوة الاستنتاج ونعمة الحواس . فأسباب الخلاص ميسورة ، وسبل النجاة ممهدة تحت مواقع أبصار العاملين إن أرادوا . غير أن غلبة العناد واستيلاء الجهل عليهم جعلهم لا يشاءون سلوك

وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾

هذه السبل الموصلة إلى النجاة ﴿إلا﴾ وقت ﴿أن يشاء الله﴾ أن يسلكوها[1] مشيئة إلهية مقترنة بمشيئة جزئية مكسوبة لهم ، وهذا ما يعبر عنه فى اصطلاح المتكلمين بالجزء الاختيارى .

﴿إن الله كان عليما﴾ بأحوال خلقه ﴿حكيما﴾ فيما يرسمه لهم من السنن والنواميس ، وينزل عليهم من الوحى والشرائع ، ويرسل إليهم من الأنبياء والرسل : مما فيه صلاح حالهم ، وانتظام أمرهم ، وارتقاء عمرانهم . وقد سبق زيادة إيضاح لهذا البحث عند قوله تعالى فى سورة المدثر (كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء) ، وقوله أيضا فيها (فمن شاء ذكره . وما يذكرون إلا أن يشاء الله) .

ثم ختمت هذه السورة ببيان عاقبة الفريقين اللذين تضمنهما قوله تعالى : (فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا) ؛ فإن مفهومه أن فريقا يتخذون سبيلا إليه تعالى وهم المهتدون ؛ وفريقا آخر لا يتخذ ذلك السبيل إليه تعالى وهم الظالمون ، أى الجائرون عن سبيل الإيمان ، الواضعون عملهم وسعيهم فى غير مواضعه ، وهذا هو الظلم فى أصل معناه اللغوى .

فالفريق الأول قال الله عنهم : ﴿يدخل من يشاء فى رحمته﴾ ، أى جنته ورضوانه . وعبر عن هذا الفريق الناجى بقوله (من يشاء) للإشارة إلى ساحة الإطلاق ، وإلى أن دخولهم الجنة يكون بمحض مشيئته تعالى لا يكرهه عليه مكره .

وقال عن الفريق الثانى وهم الذين حادوا عن سبيل الإيمان : ﴿والظالمين أعد لهم عذابا أليما﴾ : فعل [أعد] اشتغل عن أن يعمل بكلمة (الظالمين) بضميرها وهو [لهم] فيقدر للظالمين فعل ناصب يفسره [أعد] مثل أن يقال : "وأوعد الظالمين أعد لهم" أو "وجازى الظالمين أعد لهم"

والمعنى أنه تعالى يدخل المهتدين المصدقين جنته حسب مشيئته وتفضله عليهم ، كما يدخل الظالمين المكذبين دار عذاب مؤلم أرصدها لهم .

(١) وذهب قوم فى تفسير هذه الآية إلى غير هذا فقالوا : (إلا أن يشاء الله) قهرهم عليها بإنزال عذاب من السماء مثلا يترصدهم من فوقهم أو تحت أرجلهم إن لم يؤمنوا ، فيؤمنوا إذ ذاك . لكن حملهم على الإيمان وإلجاءهم إليه بهذه الطريقة لم يرده الله ، ولم يجعله سنة من سننه الكونية فى سياسة الخلق واستصلاح أمر البشر ، لحكم وأسرار يعلمها تعالى . وإنما اختاروا هذا المعنى فى تفسير الآية هروبا من عقيدة الجبر الممقوتة ، وحفظا لكلام الله من التناقض ، وصونا لأوامره تعالى من التدافع ، ولئلا يكون للناس على الله حجة ، فيدعوا العمل ويضلوا المحجة . المؤلف .